قراءة في تخلف العالم العربي في العصر الحديث

بقلم: أ.د. محمد أمحزون

في الوقت الذي كان الفكر الصوفي بنظرته السلبية إلى الحياة يكاد يسيطر على المجتمعات الإسلامية في العصر الحديث، انطلق العالم الصليبي في أوربا في مجالات العلم وميادين المعرفة، آخذا بأسباب القوة والتقدم والرقي المادي، مدبّرا للمؤامرات والدسائس على العالم الإسلامي الذي كان فيه الجمهور في غيبوبة عما يراد بهم، ويرفضون الأخذ بالأسباب، ويعولون على البطالة والخمول والإتكالية (1).

(1) مظـاهر التخلف

أما مظاهر التخلف فنراها في العصر الحديث نكوصا وتراجع في جميع الميادين والمجالات؛ في ميدان العلم، وفي الاقتصاد، وفي المجال العسكري، وفي الحضارة عموما.

أ- التخلف العلمي

في الميدان العلمي حدث تقلص ضخم أبعد بالتدريج كل العلوم التجريبية من معاهد العلم، في الوقت الذي اقتصرت فيه العلوم الشرعية على فكر القرن الخامس الهجري. ثم أخذ التقليد يتكرس قرنا بعد قرن، واقتصر التصنيف العلمي على شرح المؤلفات السابقة أو تلخيصها(2).

لقد كان من مفاخر الحركة العلمية الإسلامية في عصور الازدهار أنها تفتحت للعلم كله، وأبدعت في جميع العلوم الشرعية والتجريبية. وكان العالِم يتخصص في العلوم الشرعية ويكون في ذات الوقت عالما بالطب أو الفلك أو الفيزياء أو الكيمياء بغير تعارض ولا تناقض بين هذا وذاك. وكانت المعاهد العلمية في الأندلس وغيرها تعلم طلابها كل فروع العلم وألوانه بغير تفريق، وكانت العلوم التجريبية من المعالم البارزة في تلك المعاهد إلى جانب العلوم الشرعية. ومن هناك تعلمت أوربا المنهج التجريبي في البحث العلمي، وترجمت ما كتبه المسلمون في الطب والفلك والفيزياء والكيمياء والرياضيات والبصريات، وكانت تلميذة عليه في بداية نهضتها(3).

ولكن المسلمين تحت تأثير الفكر الصوفي تخلوا عن تلك العلوم تدريجيا من معاهدهم ليقتصروا على العلوم الشرعية، مع الجمود في دراسة هذه العلوم ذاتها تحت وطأة التقليد وإقفال باب الاجتهاد.

فالصوفية التي انحرفت عن مبادئ الإسلام وقيمه التي تدعو إلى الجمع بين الدنيا والآخرة، اتجهت إلى إهمال الدنيا بحجة التزكية من أجل الآخرة، وأهملت بالتالي عمارة الأرض على أساس أن الاشتغال بها يثقل الروح ويذهب عنها شفافيتها وطلاقتها. ومن ثم أهملت كل العلوم المتصلة بتلك العمارة، واعتبرتها شيئا ثانويا يمكن للأمة الإسلامية أن تستغني عنه(4).

ولم تفهم بأن إتقان العلوم الدنيوية ضروري لبناء المعرفة ومن ثم إعداد القوة التي أمرنا الله عز وجل بها لنشر الدين وحماية المجتمع الإسلامي من أعدائه المتربصين به.

أما العلوم الشرعية فقد تأثرت هي الأخرى بروح التقلص العامة التي فشت في المسلمين من أكثر من وجه، حيث تحول الطلاب إلى حفظة لا مفكرين، يتعالم الواحد منهم بقدر ما يحفظ من المتون والشروح والحواشي، ولكنه لا يفكر في الإضافة والتجديد والتأصيل العلمي، ففقد العلماء أصالة العلم وأصبحوا مجرد نقلة مقلدين(5).

ومن خلال تراجم الشيوخ والعلماء في العصر الحديث نستطيع أن نتبين أن بعضهم كان غزير الإنتاج؛ فكم من عالم أنتج العشرات من الكتب والرسائل، ولكننا لا نستطيع أن نجد من بينها بحثا له قيمة أو كتابا يضيف إلى العلم جديدا، أو رسالة فيها شيء من الابتكار، وإنما أقصى ما يفعله الواحد منهم أن يكتب شرحا لمتن أو يضيف حاشية على شرح(6).

بل تكرس شر آخر، وهو التعصب المذهبي في الفروع الذي عم الدارسين، كلٌ يتعصب لمذهبه الذي نشأ عليه، وجعل قصارى جهده أن يثبت تفوق مذهبه وشيوخه على المذاهب الأخرى وشيوخها، وأن يدخل في معارك وهمية مع الآخرين من أجل الانتصار للمذهب الذي ينتسب إليه(7).

وهكذا سواء في العلوم الشرعية أو في العلوم البحته التجريبية فقدت الأمة حاستها العلمية بتاتا، وخرجت من الدائرة التي كانت هي مركزها في يوم من الأيام، يوم كانت هي العالمية الرائدة في الأرض، وأوربا تهرع لتكون تلميذة على ما لديها من الحضارة والعلم.

ومن خذلان الله تعالى للمسلمين بسبب بعدهم عن دينهم أنهم لم يعودوا يميزون بين النافع والضار من العلوم والأفكار. وكانت النظرة السائدة في المجتمعات الإسلامية صوب كل جديد يطل عليها من مخترعات أوربا، هو القصور والسذاجة الممزوجة بالخوف والتردد والحذر تجاه كل قادم مهما كان نافعا مفيدا.

يذكر الناصري المؤرخ المغربي أن بعض الفرنسيين تكلموا مع سلطان المغرب الحسن بن محمد في شأن بابور البر (القطار) والتلغراف وإجرائهما بالمغرب كما هما في بلاد المعمورة، ثم يعلق على ذلك بقوله: (وزُعِمَ أن في ذلك نفعا كبيرا للمسلمين.. وهو والله عين الضرر!! وإنما النصارى أجْربوا سائر البلاد فأرادوا أن يُجْربوا هذا القطر السعيد الذي طهره الله من دنسهم)(8).

ويذكر الغزي أن التلغراف قد دخل إلى حلب سنة (1271هـ - 1854م)، وحين مدت أسلاك البرق، وقيل للناس إنه ينقل الأخبار من بلد إلى آخر مهما كان بعيدا في لحظة كطرفة عين، أنكروا ذلك وقالوا: لا شك أن الذي ينقل هذا الخبر شيطان مارد منبث في التيل (9)!.

والخلاصة أن التخلف العلمي والشرعي الناشئ أصلا عن الانحراف العقدي أصبح هو الطابع السائد في العالم الإسلامي قبيل الغزو الصليبي الهائل الذي اجتاح بلاد الإسلام في العصر الحديث.

ب- التخلف الاقتصادي

التخلف الاقتصادي في تاريخ المسلمين الحديث يعود أصلا إلى عوامل داخلية وعوامل خارجية.

* العوامل الداخلية

إن المسلمين رغم ما كانوا يملكونه من ثروات وخيرات طبيعية من المحيط الأطلسي إلى حدود الصين، إلا أنهم عاشوا التخلف الاقتصادي في أمرّ أذواقه وأظلم أشكاله. وهذا يقود إلى الأسباب المسئولة عن تلك الأوضاع المتردية.

وها هنا لابد من الإشارة إلى أن ظاهرة التخلف هذه ظاهرة متعددة الجوانب ومتشابكة الأبعاد تتفاعل في أحداثها جميع جوانب المجتمع؛ فحيثما وجد التخلف الاقتصادي من ضعف في نصيب الفرد من الناتج القومي، وانخفاض معدل السعيرات الحرارية، والفوضى في استغلال الموارد من النخبة أو الفئة المتحكمة، وانعدام التخطيط، وعدم ترشيد الإنفاق، وعدم تكافؤ الفرص، والاحتكار...إلخ، فإن ذلك يرجع إلى التخلف السياسي والاجتماعي اللذين يترجمهما الاستبداد في الحكم، وانعدام الشورى، وانسلاخ المجتمع من قيمه، وتفشي البطالة والفراغ، ومختلف الأمراض الاجتماعية التي تصاحبهما. كما يوجد بجانب ذلك تخلف علمي وثقافي يتمثل في تعطيل حركة الإبداع والاختراع، وارتفاع معدلات الأمية، وقلة الهياكل الدراسية ومعاهد العلوم التي ترشح المجتمع لتطوير آلياته وأدواته ووسائله الاقتصادية(10).

ولو نظرنا إلى ركائز النشاط الاقتصادي وهي: التجارة، والزراعة، والصناعة، لرأينا مدى التخلف الذريع في هذه المجالات؛ فالتجارة كانت مسلوبة إلى حد كبير من أيدي المسلمين محليا ودوليا، والزراعة أُهملت إهمالا شديدا بسبب عدم العناية بوسائل الري والطرق وشؤون الأمن، أما الصناعة فلم يكن المسلمون في العصر الحديث يعرفون سوى بعض الصناعات اليدوية، ويعيشون حياة أسلافهم قبل بضعة قرون دون أي تغيير يذكر، رغم انفجار الثورة الصناعية من حولهم في الغرب اللاتيني(11).

إن التقاعس عن الأخذ بالأسباب، والتواكل، ووهن العزائم، والرضا بالفقر والدونية، والضعف العلمي، رسّخت في نفوس المسلمين القابلية للتخلف الاقتصادي، مما عوّدهم على الاستهلاك بدل الإنتاج، وعلى الذيلية والتأخير بدل القيادة والريادة والمغامرة، كل ذلك فتح المجال أمام العوامل الخارجية التي أدت دورها في إحكام الطوق على العالم العربي الإسلامي وتجريده من ميزته كمعبر للتجارة بين أوربا وآسيا.

*** العوامل الخارجية**

لقد كانت أوربا الصليبية تسعى - منذ القضاء على الدولة الإسلامية في الأندلس - إلى تطويق العالم الإسلامي وإضعافه بكل الوسائل. وكان من بين الوسائل التي اتخذوها السعي الدائب لتحويل التجارة العالمية إلى أيديهم، وانتزاعها من أيدي دولة المماليك بمصر الذين كانوا يمسكون بزمامها عن طريق سيطرتهم على البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط، فتدر عليهم أموالا طائلة وعلى العالم الإسلامي كذلك(12).

فكانت مهمة إسبانيا الالتفاف على المسلمين من ناحية الشرق بينما كُلِّفت البرتغال بالتحرك من الجنوب لإتمام عملية التطويق.

إذ كانت هاتين الدولتين تتلقيان المساعدات من أوربا لأنهما كانتا على خط التَّماس المباشر مع المسلمين وفي حروب دائمة معهم. وكانت قد وصلت إلى مسامع الإسبان فكرة كروية الأرض، وإمكانية الوصول إلى الشرق في طريق الاتجاه نحو الغرب، إذ كانوا على علم بأن سفنا مسلمة قد تحركت نحو الغرب ولم تعد، مما يعني أن هناك إمكانية للوصول إلى الشرق(13).

وانطلق البرتغاليون نحو الجنوب والتفوا حول رأس الرجاء الصالح. ومنذ اكتشافهم لهذا الموقع الحيوي الذي اكتشفوه على هدي الخرائط الإسلامية وبمعاونة بحار مسلم عربي (ابن ماجد)، بدأوا يتجهون إلى الشرق الأقصى ليستولوا على أرضه وخيراته، وينقلونها على سفنهم عن طريق رأس الرجاء الصالح ليحرموا منها المماليك، ويحرموا منها العالم الإسلامي كله، فتأثرت اقتصاديات العالم الإسلامي تأثرا بالغا فيما حدث. مع العلم أن الهدف الأول لهذا التحرك الاقتصادي من أوربا هو: حرمان المسلمين من مصادر

قوتهم بإضعافهم، ثم يأتي الهدف الثاني وهو مرحلة التوسع وتكوين الإمبراطوريات وتحقيق المصالح القومية(14).

ج- التخلف الحربي

أما التخلف الحربي فصلتُه بالتخلف العقدي واضحة بكل تأكيد؛ فكل عوامل الانحراف العقدية قد أثرت في القوة الحربية لهذه الأمة..

- سواء الاتجاه الصوفي الذي يصرف الناس عن جهاد الأعداء بحجة توفير الطاقة لجهاد النفس!
- أو الفكر الإرجائي الذي ساهم في الخنوع والكسل وترك العمل وإعداد القوة لإرهاب أعداء الإسلام
- أو الاستبداد السياسي الذي شغل الحكام بفرض سلطانهم على شعوبهم عن الجهاد لإعلاء كلمة الله.
- فإذا أضيف إلى هذا كله التخلف العلمي والتقني، وفقدان روح الابتكار، فقد اكتملت أسباب التخلف الحربي، وأصبح هو النتيجة المنطقية للظروف التي أحاطت بالمسلمين في العصر الحديث(15).

فبعد أن وصلت الجيوش العثمانية – وهي الحامية للعالم الإسلامي - إلى (فيينا) غربا وإلى (بترسبورج) شرقا، وحاصرت كلا منهما فترة من الوقت، أخذت تتراجع لا عن تلك الأهداف القصوى وحدها، بل عن الأهداف الدنيا، حتى أكلت روسيا الصليبية بقاعا واسعة من الأرض كل سكانها مسلمون، واستولت أوربا على بعض الولايات العربية، مما يعني أن أوربا تتقوى باستمرار، حتى صارت قوتها مكافئة لقوة الدولة العثمانية العسكرية، ثم أخذت تتفوق عليها، فتغير ميزان القوى، وبدأت أوربا تهدد العالم العربي الإسلامي بأكمله. ومما لاشك فيه أن هذا الاكتساح العسكري يرجع إلى التفوق في مجال صنع الأسلحة الحديثة في أوربا، وظهور بوادر التطور الصناعي في المجال الحربي(16).

فعلى سبيل المثال، فالمماليك الذين كانوا يحكمون مصر لم يستطع جيشهم الصمود أمام الحملة الفرنسية في معركة (إمبابة) سوى ثلاثة أرباع الساعة بسبب التفوق في التسلح والتنظيم العسكري من جانب الفرنسيين(17) ؛ فالمدافع المركبة في (إمبابة) وعددها أربعون مدفعا لم تكن مركبة على عجلات بحيث تستطيع التحرك والانتقال تبعا لتطور القتال، بل كانت مثبتة على الأرض، والمقاتلون لا يستطيعون التحرك

بسهولة ومغادرة الاستحكامات التي كانوا ممتنعين بها، كما أن هذه المدافع كانت من الطراز العتيق، فلم تطلق قنابلها إلا مرة واحدة، ولم يستطيع رماتها أن يعيدوا الضرب بها(18).

وفي المغرب استطاع جيش فرنسي لا يتجاوز عدده ستة الآف مقاتل أن يهزم الجيش المغربي البالغ عدده خمسة وستين ألف جندي في عهد السلطان عبد الرحمان بن هشام عام (1258هـ - 1842م) في معركة (وادي إسلي)، بسبب ضعف السلاح وفقد النظام(19).

د- التخلف الحضاري

لقد استمر الإشعاع الحضاري في بلاد المسلمين زهاء ألف سنة، لكن ما لبث يتراجع ويخبو شيئا فشيئا. كيف يا ترى حط التخلف رحاله في العالم الإسلامي بعد أن ظلت الحضارة الإسلامية أول الحضارات تقدما ورُقيّا على الصعيد العالمي؟

من المسلَّم به أن العامل الجوهري في هذا التخلف الحضاري في العصر الحديث يرجع إلى: تجاهل السنن الربانية التي تحكم الأشياء والطبيعة، وتحكم الأفراد والأمم، وفهم هذه السنن واستيعابها وتوظيفها وتسخيرها على الوجه الصحيح. بالإضافة إلى ضعف اهتمام المسلمين بما يطلق عليه القرآن "السير في الأرض"، أي الحركة والعمل والتأمل الذي يهدي إلى البحث والكشف عن السنن التي تعينهم في تصريف شؤونهم المختلفة، وتذلل لهم الصعاب، وتيسر لهم عمارة الأرض، واستغلال كنوزها وخيراتها، وفق المنهج الذي نص عليه القرآن الكريم.

ومع غياب التفكير السُنني وتراجع العلم لم يعد المسلمون قادرين على تسخير مفرداته بطريقة واقعية ووضعها موضع التنفيذ العملي، مما أفقدهم الجدوى والفاعلية المطلوبة للتقدم والسبق الحضاري(20).

علاوة على أن الاستبداد قتل روح الإبداع ومقومات التجديد في الأمة، وجعل كل إنسان ينشغل بخاصة نفسه ولا يلتفت إلى مصالح الجماعة وإلى حاجات الأمة، فطغت الأنانية والمصلحة الخاصة على حساب المصالح العليا للأمة، وتحول المسلمون إلى البداوة وعدم التحضر عند فقدهم للروابط التي تفسر اجتماعهم وعملهم المشترك في سبيل أهدافهم الحضارية.

أما الجانب المعنوي من الحضارة ـ وقوامه السلوك الأخلاقي المرتبط بالعقيدة ـ فقد تلاشى من حياة المسلمين بفعل الفكر الإرجائي، فلم يعد المسلم يجد حرجا في قلبه أن يكذب، وأن يغش، وأن يخون الأمانة، وأن يتهاون في العمل، وأن يخلف الوعد، وأن يحقد على أخيه ويتمنى زوال نعمته، وأن ينافق، وأن يبخل

ويجبن، وأن يبيت شبعان وجاره جائع وهو يعلم، ففقد بذلك جوهره الحضاري الإسلامي؛ لأنه تجرد من أخلاقيات "لا إله إلا الله"، وتجرد من قيمها الإنسانية العليا التي هي جوهر الحضارة وعماد التحضر(21).

وعلى العموم، فقد اصطبغت المجتمعات الإسلامية بجملة من الظواهر السلبية أورثتها الاستيلاب الحضاري وانطفاء الفاعلية منها:

- فاعلية تكاد تكون منعدمة، ونظرة إلى الوقت على أنه لا قيمة له.

- نشاط متجه إلى اللغو والكلام الفارغ والحديث غير المنتج، والثرثرة تكثر كلما قلّ النشاط والحركة.

- فقدان التخصص، والجهودُ مبعثرة.

- الإنتاج أضأل من حاجات المجتمع، ولذلك كان المسلمون عالة على الغربيين في حاجاتهم الحيوية، مما مهدّ للاحتلال الأجنبي.

- التقاعس عن العمل والتواكل، وضعف العزائم، والرضا بالفقر على أنه قدر من الله لا ينبغي السعي إلى تغييره، خوفا من الوقوع في خطيئة التمرد على الله تعالى(22).

وخلاصة القول:

إن الهزائم والنكبات في تاريخ المسلمين الحديث والمعاصر تعزى إلى: التراجع العلمي، والتدهور الاقتصادي، والتخلف العسكري، والانحطاط الحضاري، على كافة الصُعُد، يوم أن فرط المسلمون في دينهم شعوبا وحكاما، حيث ركن الحكام إلى ملذاتهم وشهواتهم، وانصب اهتمامهم على المحافظة على كراسي الحكم وأهملوا أمر الجهاد، وتفشت الجهالات والبدع والخرافات والمنكرات في الأمة، فأهملت الأخذ بالأسباب، وجهلت كيفية التعامل مع نظام السنن في الحياة، سواء السنن الطبيعية أو الاجتماعية أو التاريخية، فألم بها الضعف المعنوي والمادي، وغشيها الانحلال، فخذلها الله عز وجل، وأصبحت لقمة سائغة في أيدي أعدائها.

---

[1] - للتوسع في هذا الموضوع انظر: "الانحرافات في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين"، لعلي الزهراني: (564-437/1).
2- المرجع السابق: 12/2، 34).
[3] - المرجع السابق: (8/2، 9).
[4] - محمد قطب، "واقعنا المعاصر": (ص175).
[5] - المرجع السابق (ص 176).

[6] - جمال الدين الشيال، "الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الإسلامي": (ص 11).
7- محمد قطب، "واقعنا المعاصر": (ص 176)
[8] - "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى": (162/9).
9- "نهر الذهب في تاريخ حلب": (39/3).
10 - عبد المجيد قدري، "قراءة في تخلف العالم الإسلامي"، مجلة السنة، عدد 4، (ص81).
11- علي الزهراني، "الانحرافات العقدية والعلمية": (155/2) بتصرف.
12 - محمد قطب، "واقعنا المعاصر": (ص179).
13 - محمود شاكر، "الشكوف الجغرافية، دوافعها وحقيقتها": (ص 33،11).
14- محمد قطب، "واقعنا المعاصر": (ص 179، 188،180).
15 - المرجع السابق (ص 182، 183).
16 - المرجع السابق (ص 183).
17 - الجبرتي، "عجائب الآثار": (189/2).
18 - عبد الرحمان الرافعي، "تاريخ القومية وتطور نظام الحكم في مصر": (206/1، 208، 211).
19- الناصري، "الجيش المغربي عبر التاريخ": (ص 123، 126).
20- محمد بدري، "الفاعلية طريق الحضارة"، مجلة البيان، عدد 99، (ص 34)، بتصرف يسير.
21- محمد قطب، "واقعنا المعاصر": (ص 178).
22- محمد بدري، "الفاعلية طريق الحضارة": (ص 34).

(2) نتــائج التخلف

أ- الغزو الخارجي

لقد أصيب العالم الإسلامي بضربات خارجية موجعة من أمم مختلفة؛ ففي العصر العباسي الثاني داهمتهم غزوات الصليبيين من الغرب ثم اجتياح المغول من الشرق. ودخلت الأمة في أحلاف ومعاهدات مريبة، خصوصا مع النصارى في الأندلس أيام دولة ملوك الطوائف(1).

وفي العصر الحديث، لم يستيقظ المسلمون إلا على وقع سنابك خيول الغزاة الأوربيين وأصوات مدافعهم، يجوبون البلاد ويعبثون بوحدة الأمة ودينها ومقدراتها، وتمزقت بلاد المسلمين على أيديهم؛ فاحتل الفرنسيون الجزائر وتونس والمغرب وسوريا، واحتل البريطانيون مصر وفلسطين والعراق والهند، واحتل الإيطاليون ليبيا، واحتل الهولنديون جاوة وسومطرة... إلى آخر ما في القائمة.

ب- تنحية الشريعة الإسلامية عن الحكم

وهذه النتيجة مترتبة على النتيجة السابقة، إذ كان من أهم أسباب مجيئ الاحتلال الأجنبي إلى بلاد المسلمين هو إلغاء العمل بشريعة الله وتنحيتها عن شؤون الحياة.

وهذه أخطر ضربة وجهت للعالم الإسلامي، حيث أصيب في صميم دينه؛ فالشريعة هي التطبيق العملي للعقيدة الإسلامية، وهي الضامن للاستقرار والأمن والعدل في المجتمعات الإسلامية.

وللعلم، فإنه لم يفكر حاكم من الحكام في بلاد المسلمين ولم يتجرأ – وإن بلغ من الطغيان والاستبداد ما بلغ - أن يحكم المسلمين بغير حكم الله، ويرفض الالتزام بمبادئ الإسلام وأحكامه. نعم قد حصل نوع خروج على الشريعة بإدخال بعض القوانين الوضعية في وقت مبكر نسبيا في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني الذي اشتهر بهذه التسمية بسبب تلك الفعلة المنكرة(2).

لكن في عهود الاحتلال الأوربي اتسع الخرق على الواقع، ولأول مرة تُفرض القوانين الوضعية بصفة عامة على المسلمين، وفي جميع القطاعات والميادين؛ إذ سلَّم الاستعمار الغربي مقاليد الحكم لأولئك النوابت الذين استفرغ الوسع في تنشئتهم على فكره ومنهاجه، وزرعهم شوكة في خاصرة الأمة، مبتوتو الصلة بعقيدتها، مغيّبون عن تاريخها، همهم وديدنهم تنفيذ تعاليم المستعمر في كل مجال وميدان، ينشرون الفساد في كل مكان، قد وصفهم لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفا دقيقا: «**دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها**» قلت (أي الصحابي) صفهم لنا يا رسول الله، قال: «**هم من بني جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا**»(3) وفي رواية: «**فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنسان**»(4).

وكان أول ما بدأ به هؤلاء الذين أطلق عليهم زورا وكذبا (دعاة الاستنارة ورواد النهضة) أن عملوا على تحطيم كل ما له صلة بالإسلام، إذ يعوق في زعمهم انطلاق الأمة. وبفعل الانبهار بالفكر الغربي الذي أُشربوه حتى النخاع من ناحية، وبفعل العمالة للاحتلال من ناحية ثانية، راحوا يستجْدون أعداءنا التاريخيين ليقدموا لنا ثمرة جهودهم وسر تفوقهم على طبق من ذهب(5).

والخلل في حركة التنوير العلمانية الحديثة أنها انطلقت في رؤيتها لأزمة الأمة من وضعية الانبهار الحاد بما حقق المجتمع الأوربي الحديث من إنجازات مدنية وتنظيمية هائلة، فانكبت على دراسة التجربة الأوربية الحديثة. وبدلا من أن تتعلق هذه الدراسة وتتأثر بالتقنية الأوربية أو بالمناهج العلمية التطبيقية أو علوم التنظيم أو التخطيط والإدارة، ونحو ذلك مما كان من أهم أسباب تقدم أوربا الحديثة، وهو الذي نجحت في البدء به أمم أخرى كاليابان مثلا، بدلا من ذلك انحرفت نحو دراسة آداب الغرب وتاريخه وفكره الديني والسياسي والاجتماعي والاقتصادي، كل ذلك من واقع نفسي مهزوم، فاتخذوا من تجربة الغرب نموذجا كاملا... يحاكمون إليه كل ما عندهم من دين وتراث وفكر، بدلا من المقارنة والموازنة، وأخذ ما ينفع وترك ما يضر، وأغفلوا بدهية لا تخفى على من له أدنى مسكة عقل وهي: أن لكل تجربة إنسانية خصوصيتها التي تجعل من الصعب أو المحال تعديها برمتها إلى بناء إنساني آخر(6).

وبعد التجارب المريرة التي أجراها العلمانيون على كافة الصُعُد، أصيبت الأمة بنوع من الشلل في معظم جوانب حياتها السياسية والاقتصادية والإدارية والاجتماعية، وتوقفت عن النماء خصوصا في جوانب الإبداع العلمية، فعمّ الجهل وسادت الغفلة، واستعاض الناس بمظاهر الأشياء وصورها عن حقائقها ومعانيها(7).

وعلى صعيد الاعتقاد والتصور، انتشرت البدع والخرافات، وفي التطبيق أُميتت السنن، واستحكمت غربة الدين في نفوس أكثر المسلمين في كثير من البقاع، ولم تعد القيادة السياسية مؤهلة لتحقيق أهداف الأمة، ولا الأفراد بمدركين حجم الخطر، وخطورة التوقف والجمود، ومغبة الانحراف عن منهج النبوة، وظهر فصام نكد بين الشعور والسلوك، وبين التدين والمدنية(8).

ج- وقوع بلاد المسلمين ضحية الفوضى السياسية ونزوح الأموال

لقد أصبح العالم الإسلامي حقلا للتجارب وسوقا لتجار الشعارات من المنافقين والمرتدين؛ فالليبراليون الديمقراطيون يحلفون بأغلظ الأيمان لشعوبهم أن الخلاص على أيديهم بتقليد الغرب المتقدم، والاشتراكيون اليساريون يعِدون الشعوب بالعدالة والمساواة على يد الاشتراكية العلمية(9).

وهكذا انتشرت حمى المتاجرة بالشعارات واللافتات على طول البلاد الإسلامية وعرضها، ولا جديد إلا مزيد من التبعية للنصارى ولليهود، ومزيد من الديون على كاهل الشعوب، ومزيد من الفساد والرشوة واختلاس الأموال وتحويلها إلى الحسابات السرية في البنوك الغربية لتستفيد من استثمارها الحكومات والشركات الغربية، بينما فرض الحكام على الأمة التقشف المسفّ، فصارت الشعوب الإسلامية تدفع الثمن باهظا بمزيد من التخلف والحرمان والظلم والفاقة.

ولولا أرصدة الأموال الإسلامية في البنوك الغربية لأعلنت الأخيرة إفلاسها، وما نزوح هذه الأموال إلا بسبب الطغيان السياسي، وعدم الاستقرار وتقييد الحريات. وللإشارة فإن هذه الأموال النازحة، لا تمثل إلا نسبة ضئيلة من خيرات المسلمين التي استأثر بها العدو واصطفاها لنفسه، وفرض على العالم الإسلامي مختلف القيود ليضمن استمرارية تدفقها إليه(10).

د-هجرة العقول الإسلامية

إن المهاجر المسلم الذي يغرى بشتى الإغراءات المادية والأدبية لترك بلاده هو ذلك الإنسان المفكر الموهوب، الإيجابي المبدع، وتعتبر الإحصاءات الآتية دليلا على نزيف خطير في جسم الأمة بسبب هجرة الأدمغة أو العقول، كما يطلق عليها.

فحجم الظاهرة بالغ الخطر، والأرقام متكاثرة ومرعبة، ومن الناحية الإجمالية تشير الإحصائيات إلى أن 75% من العاملين في الشركات العالمية في مجال تنمية البرامج الغربية هم من العقول العربية العاملة في برامج الكمبيوتر. وثمة إحصاءات أخرى تقول إن المصانع الكبرى في فرنسا وألمانيا تضم 80% من أصحاب المهارات الفنية من أبناء شمال إفريقيا، ومن الأتراك والأكراد ومصر ولبنان(11).

وهناك تقارير تفيد أن 8% من مجموع القوة العاملة العربية هاجرت، وأن 20% من مجموع الأطباء هم الآن خارج المنطقة، وأن 15% من خريجي الأقسام العلمية استسلموا للهجرة الدائمة، وأن 30% من الطلاب بقوا حيث هم، وأن 27 ألف عربي يحملون درجة الدكتوراه غادروا بلدانهم إلى أوربا وأمريكا، وأن هذا الرقم وصل إلى 32 ألف في عام 1420هـ (2000م)، وأن هناك 4102 عالم مسلم في مختلف علوم المعرفة في مراكز أبحاث غربية مهمة(12).

ومن الناحية المالية تشير الإحصائيات إلى أن مصر تتكلف 100.000 دولار لإعداد الفرد الواحد من الهاربين، وأن مصر وحدها خسرت 50 مليار دولار بسبب عمليات الهروب هذه، أي أن الغرب وعن طريق استقبال المهاجرين حصل من مصر على أكثر من ديونها له البالغة حاليا نحو 79 مليار دولار. وتشير الدراسات والأرقام أن الدول العربية تخسر سنويا 1.5 مليار دولار نتيجة هجرة حملة الشهادات

العليا، والخسارة العربية الكلية فقط 200 مليار دولار، ناهيك عن العالم الإسلامي كله، وهو رقم مخيف، خسارة في الأموال وفي الطاقات والكفاءات البشرية، والله المستعان(13).

هـ - الهزائم والمذابح المتتالية

وفي كل مواجهة بين العالم الإسلامي وأعدائه - حتى اليهود - يُمْنى بهزائم نكراء ومجازر بشعة على امتداد رقعته الفسيحة في: فلسطين، ولبنان، والهند، وكشمير، والحبشة، والفلبين، والشيشان، وأفغانستان، وأخيرا العراق.

لقد أصيب المسلمون بداء الأمم (الوهْن)؛ وهو حب الدنيا وكراهية الموت، ونُزِع من قلوب أعدائهم مهابتهم، فأصبحت أمم الكفر والشرك والوثنية تتداعى عليهم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، كما قال الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم. وهذا نراه الآن رؤية العين فوق كل أرض وتحت كل سماء.

وخلاصة القول:

إن كل هذه المظالم والرزايا والانتكاسات مما ابتُلي به المسلمون في التاريخ الحديث والمعاصر، ومما نشاهده الآن، هو من خذلان الله تعالى لهم بسبب تفريطهم في جنب الله، وتركهم هداه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، والاحتكام إلى شريعته، ونبذهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهذه سنة الله في العصاة والفاسقين، وتلك - كما بيناها - عواقب المخالفة والمعصية، وتلك أمهات الأسباب، وعوامل الخذلان ومظاهره ونتائجه، التي حاقت بالأمة الإسلامية، فانفرط عقد نظامها، وسقطت من عين الله تعالى، وهانت على عدوها يوم أن هانت في عين نفسها، والسنة: من يَخذل اللهُ يُخذل.

1- عبد الرحمان الحجي، "التاريخ الأندلسي": (ص 332، 368).
2- محمد قطب، كيف نكتب التاريخ الإسلامي، (ص182).
3- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الفتن، ج8، (ص93).
4- ابن حجر: الفتح، ج 13، (ص36).
5- حسن الحميد: سنن الله في ألأمم، (ص545).
6- جمال سلطان: جذور الانحراف في الفكر الإسلامي الحديث، (ص104-105)
7- حسن الحميد: سنن الله في الأمم، (ص543).
8- المرجع السابق (ص542).
9- المرجع السابق (ص559).
10- المرجع السابق (ص559)
11- طلعت رميح: هروب النخب من الدول الإسلامية إلى الغرب، مجلة البيان، عدد 185، (ص79).
12- المصدر السابق، (ص79).
13- المرجع السابق، (ص79)..